بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسله الكرام

وهذه عجالة نقدمها إلى قراء العربية، على أنها مذكرات لطلبها الجامعة المصرية، ولمن يريد أن يطلع على شيء جديد مجمل عن حركة الأدب الحديثة، وطرق فهم البلاغة فى هذا العصر. أما كبار العلماء، وأساتذة الأدب، فلا يجدون فى هذه الآراء ما يشفى غلتهم، أو يسكن من حب الاستطلاع لديهم. فعليهم أن يرجعوا إلى كتب الفرنجة الحديثة، وفيها كل التفصيل لما أجملناه وأوجزناه. ذلك فى غير الكلام فى بلاغة العرب فإن كل هذا أوجله من آرائنا الخاصة التى اهتدينا إليها بالدرس والتفكير.

وإذا كان كتابنا هذا يدعو إلى سلوك طريق جديد فى دراسة بلاغة العرب وفهمنا، فذلك لأن مصر الآن فى حالة رقى (تطور) يشبه من بعض الوجوه أن يكونون عصر نهضة لنا. وفى مثل هذه العصور يحدث فى العقول كما يحدث فى المجتمعات انقلاب وتغير وميل إلى الجديد فى كل شيء. وإننا لنجد هذا الشعور يدب فى نفس كل إنسان منا حتى فى النفوس التى لا تحب غير القديم.

إن كل ما يراه القراء فى هذا الكتاب جديدًا هو ما يجيش فى نفوس الأدباء الذين اطلعوا على بلاغات الأمم الحديثة ورأوا الأطوار التى أدركتها فكانت سبب رقيها. وكلهم يعتقد أننا لا ننهض بلغتنا العربية إلا إذا دفعنا بها إلى التحرك من مكانها الذى طال وقوفها فيه، لتأخذ مكانًا واسعًا يليق بها فى صف اللغات الحية الآن. وفى اعتقادنا أنه لا يكون ذلك إلا إذا تغيرت طرق

الدرس والتأليف عما كانت عليه منذ ألف سنة. وذلك ما ترجوا أن يوفق إليه علماء اللغة والأدب عندنا.

والله سبحانه المسئول أن يهبنا الإخلاص فى عملنا، وأن يوفقنا إلى الصواب،

يناير سنة ١٩٢١ أحمد ضيف

obeikandl.com

تمهيد[1]

دراسة الآداب العربى بالطرق المعروفة الآن لا تزال حديثة العهد. والأدب العربى على سعته وغنائه مشوش مختلط مرتبك، لا يزال باقيًا على حالته الأولى من البساطة والسذاجة فى التأليف والجمع. ولم تحرر بعد عقول أدبائنا من قيود الطرق القديمة والانتصار لها. ولا يزال يعد الخروج من القديم خروجًا عليه. ولا نزال نعتقد أن القدماء وصلوا إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه العقل البشرى من الذكاء والإتقان، وغير ذلك من ضروب الرضا والارتياح.

ومدرس الأدب يلزمه أن يطلع على أكثر ما كتب فى اللغة ليقف على روحها ومؤلفيها، وليعرف الكتاب والشعراء والفلاسفة والمشرعين وغيرهم. لا يكفى معرفة ذلك من بطون الكتب والفهارس والموسوعات، إذ لابد من قراءة الكتب نفسها والحكم عليها بناء على معرفة الشخص نفسه. وكل حكم مبنى على التقليد أو النقل لا قيمة له، ولا يفيد الأدب شيئًا ولا يصح الاعتماد عليه. فلا يصح أن نأخذ بالتسليم بقول من قال أن النابغة الذبيانى أشعر الشعراء لأنه قال: فإنك كالدليل الذى هو مدركى الخ بدون بحث فى ذلك، ولا أن المهلهل أول من طول القصائد، لأن صاحب الأغانى أو غيره قال ذلك، بدون أن نبحث فى صحة هذا الزعم، ولا أن نصدق قول من قال أن لغة العرب أحسن اللغات، بدون أن نعرف شيئًا من اللغات الأجنبية

(١) هذا ملخص الخطبة التى افتتحها بها دروسنا فى الجامعة المصرية فى اليوم التاسع من شهر نوفمبر سنة ١٩١٨.

ونوازن بينها وبين اللغة العربية. وإننا لنسىء إلى اللغة العربية وإلى الأدب العربى وإلى الأمة العربى أكثر من أن نحسن إليها بمثل هذه الأقوال التى لا يمكن أن يعتمد عليها إنسان مفكر، كما أنها لا تحرك العقول ولا تحملها على البحث. والعقل إن لم يكن طلعة محبًا للبحث لا ينتج ولا يدرك حقائق الأشياء. وما يدعوه العلماء الآن حرية الفكر ليس إلا نوعًا من البحث المبنى على التعقل والاستنتاج، وهو سر تقدم العلوم والفنون فى المدينة الحاصرة. فلا بد لآدبائنا من هذه الحرية المبنية على المعلومات الصحيحة، والاستنتاج الصحيح.

والأفكار عندنا مقيدة محصورة: مقيدة بالعادات، محصورة فى دائرة ضيقة من المعلومات، محدودة بشىء أشبه بالعقيدة فى صحة ما نحن عليه من العلم والأخلاق. والخروج من العادات عسير، وترك الإعجاب بالنفس شديد على النفس مهما ضحت عزيمة محب الجديد وقويت براهين الداعى. وبلدنا من أشد ما يكون تمسكًا بالعاداته وطرقه فى الفهم والإدراك. ولكنا فى إبان نهضة تبشرنا بحسن المستقبل وإقبال شبابنا على العلم وتعلمه وقبول الجديد يبعث فينا أملا كبيراً فى نجاح هذه الحركة المباركة.

العالم متحرك. والعلم والأدب نتيجة هذا التحرك، فهى متحركة معه ومتغيرة بتغيره. فلا بد أن تسير فى هذه الحركة، وأن تنتقل معها، وأن تتجدد معلماتنا بتجددها. نريد بذلك أن نكون من أنصار الجديد.

ونريد بالجديد الحركة التى أحدثتها الأفكار والقرائح منذ وقوف حركة العلم والأدب عند المسلمين إلى اليوم. أى نريد أن تأخذ عقولنا ومعارفنا صبغة جديدة غير الصبغة الموجودة فى كتبنا وفى معلوماتنا. لأن العلم يتغير

كلما كـثر فيـه البحث حتى لقـد تنقلب العقيـدة فى العلم إلى ضدها، إذ أن القواعد العلمية منبية على الحكم عـلى الظواهر الطبيعية، وقد يخطئ الإنسان فى إدراك هذه الظراهر أو يدركها ناقصًا. وقد يفـهم المجرب من التجربة غير نتائجها حتى فى العلوم الرياضية والطبيعية، لأن جزءًا كبيرًا من حكم الإنسان على الأشياء سـببه العواطف والإحسـاسات الشخصيـة التى تختلف عند كل إنسان باختـلاف مزاجه. وكا يكون للإنسـان مزاج خاص يقوده ويتـحكم فيه يكون أيضًا للزمن مزاج خاص يسود فيه ويقود الرأى العام.

يظهر أثر ذلك فـى المذاهب السائدة، والأفكار العامـة، ثم يتغـير بمرور الزمن وكثرة البـحث. والأفكار سائرة على مثال المد والجزر: تتقـدم وتتأخر، ثم تتأخـر وتتقـدم. لأن الحركـة فى كل شىء دليل الحيـاة. فلا بد من سـير الفكر، إذ الفكر الواقف مائت. لذل نـرغب من متأدبينا وعلمائنا أن يعـيرونا شيـئًا من التسامح، وأن يغـضوا الطرف عمـا عساه أن يكون غيـر جار على طرقهم فى الفهم والإدراك، أو مخالفًا لحكمهم على الأشياء، وأن يعتقدوا أننا نفعل واجبًـا علينا لبلادنا ولغتنا وأمـتنا، وأنه يجب أن نضحى بكل شىء فى سبيل هذا الواجب. ونحن نعتقد من جـهة أخرى أنهم مخلصون فى تمسكهم بتربيتـهم العقلية، لأن شكر الجمـيل يقضى عليهم بالانتصـار إلى معلوماتهم التى بها رقوا وعليـها شبوا. ولكنا لا نعذرهم ولا يعـذرهم إنسان إذا حكموا علينا بدون أن يتدبروا أقوالنا، ومن غير أن يدرسـوا ما نقول دراسة خالية من الميـول والأهواء. فكلنا يـقصـد إلى إصـلاح لـغتـه التـى لا يمكن أن ترقى معلوماتنا بدونها.

اللغة العـربية لغـتنا لأنها لغة الـكتابة والتأليف، ولأنهـا تستـوعب لغة التفـاهم بيننا. والآداب العربـية آدابنا من حيث أنهـا أصل معلومـاتنا، ومنبع

معارفنا ومواهبنا العقلية. بل هى كل ما نعرفه من الحركة الفكرية التى أحدثها الإنسان وأنتجتها العقول، والقرائح. ولكنا نريد أن تكون لنا آداب مصرية تمثل حالتنا الاجتماعية وحركاتنا الفكرية، والعصر الذى نعيش فيه. تمثل الزارع فى حقله، والتاجر فى حانوته، والأمير فى قصره، والعالم بين تلاميذه وكتبه، والشيخ فى أهله، والعابد فى مسجده وصومعته، والشباب فى مجونه وغرامه. أى نريد أن تكون لنا شخصية فى آدابنا. ولا نريد بذلك أن نهجر اللغة العربية وآدابها، لأننا إن فعلنا ذلك أصبحنا بلا لغة وبلا أدب. إذ لا يمكن أن نصل إلى ذلك بدون أن نرجع إلى اللغة العربية وآدابها، بحيث تكون قاموسًا لنا ونوذجًا لبلاغتنا، وإمامًا نهتدى به فى الصناعة الأدبية. وعلى الجملة تكون آدابنا عربية مصبوغة بصبغة مصرية. من هذه الوجهة يجب أن نتعصب للغة العربية وآدابها كما يتعصب الأوربيون الآن للغة اللاتينية واليونانية، لأنها أصل معارفه ومستودع سر مدنيتهم. ولا ينكر إنسان علينا ذلك لأن إنسانًا لا يمكنه إنكار أثر المدنية العربية فى العالم الإسلامى. ونعود فنقول أن كل ما نرجوه هو أن تكون لنا آداب مصرية عربية: مصرية فى موضوعاتها ومعلوماتها، عربية فى لغتها وبلاغتها وأساليبها،

ولا يخفى على من ألقى نظرة إجمالية فى الأدب العربى صعوبة تدريس هذه الآداب. لأنها ليست آداب أمة واحدة وليست لها صبغة واحدة، بل هى آداب أمم مختلفة المذاهب والأجناس والبيئات. ذلك إلى سعتها التى لا تكاد توجد فى أدب أمة أخرى. ولذلك يكون من المتعسر على فرد واحد أن يقوم بجميع تاريخ الأدب العربى مهما علا كعبه. وقويت عزيمته، إذ لا بد له من الاطلاع على كل ما كتب ولديه أكثر من "مليونين" من المجلدات التى

يجب دراستها. وذلك لا يتسنى لفرد واحد، لتشتت هذه المؤلفات فى جمعها ومعرفة أماكنها. ثم فى طريقة تأليفها وصعوبة الاستفادة منها بدون جد طويل وتعب كثير. وذلك أيضًا إلى حاجة المدرس إلى التضلع من الفنون المختلفة ليمكنه نقد ما يعرض عليه، إذ لا يصح لمدرس الأدب العربى أن يمر بمقدمة ابن خلدون مثلا بدون أن يدرسها دراسة إجمالية يبين فيها مذاهب المؤلف السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ولا يمكن ذلك إلا إذا وقف أيضًا وقوفًا إجماليًا على هذه المذاهب عند العرب وغيرهم قديمًا وحديثًا، ليعرف الخطأ من الصواب فى آراء صاحب الكتاب. ومثل ذلكل يقال فى الفلسفة والعلوم وغيرها. وهذا من الصعوبة بمكان لأن تعلمنا الأولى لا يبيح لنا هذه الكفاية التى اكتسبها أهل أوربا من دراستهم الأولى.

لهذا كان كل ما يعمل الآن فى الأدب العربى من قبيل التمهيد. إذ لا يتسنى دراسته دراسة تامة إلا إذا جمعت خلاصته من شتيت الكتب الكثيرة المكاتب المتعددة، وكتب الباحثون فى ذلك كتابات نقدية تبين هذه الآاب، وما تحتوى عليه من الأفكار. وتناول البحث فى ذلك العلماء والأدباء والمؤرخون والفلاسفة والاجتماعيون، وانتقلت الحركة الأدبية عندنا من البحث فى اللفظ والديباجة، كالمجاز والاستعارة، والتشبيه والكناية إلى البحث فى نفس الكاتب أو الشار ومقدار معلوماته. وما أودعه من خطأ أو صواب فى شعره أو نثره. وما اعتراه من التأثير النفسى والخارجى، وحلمه على كتابة ما كتب، إلى غير ذلك من المؤثرات.

ولو أن همة أدباء العرب اتجهت إلى هذا النوع من النقد والبحث، بدل بذل الهمة فى فهم اللفظ لوصلت الآداب العربية إلى ما وصل إليه غيرها من

المتانة والتأثير فى المجتمع، ولكان فهمنا لآدابنا أفضل وأكمل مما نفهمه اليوم، ولتغيرت طرق التفكير والحيال عندنا، ولسارت آدابنا مع الأيام، ولتقدمت مع العلوم والأفكار. لأنه لا شيء أدعى إلى التقدم من البحث والنقد. ولا شيء أدعى إلى الوقوف والتقهقر من الإعجاب بالشيء وإلاكتفاء به عن سواه.

والطريقة التى نريد أن ندرس بها الأدب العربى هى طريقة نقدية، إذ بدون هذه الطريقة لا يمكن لأى دراسة من نوع ما أن تنتج أو تثمر. ولا لأى فكر أن يرقى أو يتقدم، ولا يمكن أن تتخطى العقول أطوارها اللازمة، ما دامت مقيدة بتأييد فكرة أو رأى تعمل على إثباته. نريد بطريقة النقد البحث فى العوامل الحقيقة التى اعترت اللغة العربى وبلاغتها، بحثًا مبنيًا على الأسباب العلمية والاجتماعية. ثم الحكم على ذلك حكمًا صحيحًا بقدر ما تهتدى إليه عقولنا، وترشدنا إليه مباحثنا، وبدون أن نرجع إلى أقوال القدماء إلا من حيث أنها مراجع، أو شيء من تاريخ اللغة، لا أنها عمدة الآراء أو قادة الباحثين. أما إذا أخذنا هذه الآراء كأصل نقلده، كان أجدر بنا أن نربأ بأنفسنا من عناء البحث والعمل، لنسرد أقوال القدماء كما هى، أو نجمعها جمعًا مع بعض التصرف فى العبارة. فيصبح تاريخ الأدب ملخص ما فى كتب القلدماء، ولا يكون للمؤلف إلا الجمع والاختصار. نريد أن ندرس الأدب دراسة علمية كما يقول الأوربيون. ولا يعنى بالدراسة العلمية كما لا يعنى الأوربيون أنفسهم أيضًا أن الأدب يصبح ذا قواعد لا يتعداها، كما فى العلوم الرياضية أو الطبيعة. ذلك لن يكون. لأن الأدب فن من الفنون الجميلة الحكم فيه موكول إلى الذوق السليم والإدراك الصحيح. وإنما تتبع خطة ذات قواعد وقوانين. وهذه الخطة هى ما يمكن أن تسمى طريقة علمية، كما سنبين ذلك إن شاء الله.

نحن لا ندعى القدر على القيام بهذاالعـمل الخطير. لأنا نعتقد أن أمامنا من الصـعوبات فى سـبيل ذلك مـا لا يذللـه إلا طول البحث والمثـابرة على الدرس. وذلك لا يكون إلا بعد زمن طويل، وهو مـا نرجو أن نصل إليه إن شاء الـله فى المستـقبل. وليس من غـرضنا أن نأتى فى دراسـتنا بسلسلة من الشعراء والكتاب، نتـبعها بشىء من تراجمهم والمخـتار من كلامهم. ذلك لا يعنينا الآن، إذا من السهل أن يقف الإنسان على ترجـمة الشاعر أو الكاتب، ويعرف شيـئًا عن حياته الأدبيـة. وإنما غرضنا البحث عن روح اللغـة العربية كما يقـولون. وحل ما بها من الشعـر والنثر حلا نفسيًـا، والبحث عن صلة ذلك بالاجتماع، وعن المؤثرات التى أحدثت فى نفس الشاعر أو الكاتب ميلا خـاصًا إلى هذا النوع من البـلاغة، ثم صلة ذلـك بمواهب الكاتب الفطرية، وقيـمة مـا عنده من فنون البـلاغة وضـروب التعبـير المخـتلفة، ومـا له من الشخـصية، أى الابتكار والإبداع فى ذلك. وهذا يسـتلزم استيـعاب ما كتـبه الكاتب أو الشاعـر بالقراءة والدرس قرءاة دقـيقة، خاليـة من الميول والأهواء الشخصية بقدر الإمكان.

ومن شروط النقد الصـحيح أن يبتعد الإنسان عن أهوائه ومـيوله عندما يقرأ كاتبًا أو شاعرًا يريد أن يفهمه كما هو. ولا بد أن يتخلى أيضًا عن أذواقه الخاصة، لأن الاستسلام إلى ذوق الشـخص ينافى طريقة النقد الصحيح. هذه الطريقة، طريقة تخلى القارئ عن ذوقه الخاص، وعن المؤثرات التى تحيط به، تجعله يفهم الكاتب بذوق الكاتب، ويفهم الشاعـر بنفس الشاعر التى قال بها شعـره. ولابد من وضع القـارئ نفسـه فى الظروف والأحوال التى أحـاطت بالكاتب وقت كتـابته. هذه الطريقة هى التى يمكن القارئ أو النـاقد من فهم

روح الكتابة. ولا بد من أن ينسى الإنسان نفسه بين صفحات الكتاب الذى يريد أن يقرأه. فإذا انتهى من تحليل الكتابة وفهمها على طريقة الكاتب نفسه، رجع إلى معلوماته الشخصية، وإلى ذوقه الشخصى، وإلى ما اكتسبه من النقد بالتجربة والدرس، فى الحكم على المؤلف.

يظن أهل العلم – ونريد باهل العلم المشتغلين بالرياضيات والطبعيات وعلم النبات والحيوان – يظن بعض هؤلاء أن الأدب من الكماليات. ويقولون كان أفضل وانفع لوفاق الاهتمام بالعلوم الاهتمام بالآداب. لأن من قسم العلوم كان يكون لنا المهندس والكيميائى والبناتى، والطبيب والصيدلى، وغيرهم ممن يفيد الاجتماع والأفراد أكثر مما يفيده الكاتب والشاعر والخطيب أو الؤرخ والفيلسوف. وفاتهم أن الإنسان كان شاعراً قبل أن يكون عالمًا، وكاتبًا وخطيبًا قبل أن تصل نفسه إلى درك العلوم وفهمها. لأنه أول ما نطق أمكنه أن يعبر عما يجول بخاطره من حزن وفرح ولذة وألم. وأن الأدب للنفوس أشبه بالجهاز التنفسى للجسم. ولكن فهم الأدب بهذا النوع جاءنا من آدابنا أكثرها مبنى على الخيال والاستعارة والتشبيه، وهو على رأى أدبائنا أفضل الأدل وأبلغه. ولا شك فى أن هذا ضرب من الكماليات. أما الأدب، من حيث أنه لسان النفوس، وترجمان العواطف، وصروة الاجتماع، وصحيفة من صحف التاريخ، فهو من الضروريات لتهذيب النفوس، ومعرفة ما فى طبيعة الإنسان من الأمراض النفسية والاجتماعية. بهذا قد يصلح الأدب ما لا يصلحه الطبيب، ويفعل الكلام ما ل ايفعل الحسام. و "أن من البيان لسحراً".

والأدب معرض عام لأفكار الإنسان، ومسرح لأنواع العقول المختلفة:

تجد فى الفيلسوف ينظر إلى العالم نظـر المفكر. يشفق عليه تارة، ويسخر منه أخـرى، ويرشده مـرة، ويضله أحيـانًا. وتجـد فيـه الاجتـماعى يبـحث فى الاجتماع وعلله، وينتحل لنفـسه حق الزعامة وحق الحكم على نظام العالم. وتجد فيه العلام والطبيب، والمتدين والمـلحد، كل يعرض مذهبه وطرق بحثه. وتجد فيه الشـاعر الخيالى، يصور الحق باطلا والبـاطل حقًا، ويؤثر فى النفس فيسـعدها أو يشفيها. ويصـور اليأس جحيمًا، والأمل جنة ونعـيمًا. والأدب يجد فيه كل إنسان طلبته. فهو صحيفة عامة من صحف الكون.

وقد ظهر لنا من المفيد أن نبدأ دراستنا هذا العام بمقدمة عامة نعرض فيها صورة إجمالية من الحركة الأدبية، تحـدد فيها الأدب، ونبين أنواعه وخواصه، وأثره فى الاجتـماع وصلتـه به، وأثره فى النفس وأثر النفس فـيه، والمذاهب الأدبية المختلفة، وطرق البحث والتأليف، وشيئًا من الموازنة بين الأدب العربى وغيره.

والله المسئول أن يرشدنا إلى الصواب وأن يكال أعـمال الجامعة المصرية بالنجاح إنه على ما يشاء قدير.

***